رُباعيات

■ ناصر الحجاج

عراق يعاني التوحّد!

يبدو العراق اليوم بلا أصدقاء. لا أحد يقف إلى جانبه حتى إيران التي كانت تُعامل من كانوا يمثلون المعارضة العراقية كابن مدلل، وتعامل نظام صدام حسين بكثير من الديبلوماسية بعد نهاية حرب الثماني سنوات، لا يمكن اليوم لمن في الدولة العراقية أن يعتمدوا عليها، أو أن يستعينوا بها، فإيران اليوم مشغولة بهمّها مع دول أخرى تؤثر على مصيرها بما لا يقارن بأهمية الدولة العراقية.

ما الذي تغيّر إذاً؟ العراقيون الذين تهبط بهم الطائرات في مطارات دول العالم يعرفون الفرق في وجوه مستقبليهم حين يمهرون جوازات سفرهم بسمة الدخول. يهبط العراقيون في عمان أو الرياض أو في بيروت فيقارنون بين استقبال الآخرين لهم حين كان صدام رئيسا للعراق، واستقبالهم البارد الرتيب اليوم. اختفت الابتسامة التي كانت ترتسم على عيون المضيفات في الطائرة، وعلى وجوه موظفي الكمارك في المطار حين كان العراقي يسافر. كان كل دينار عراقي يضع ثلاثة دولارات أمريكية في جيبه، واليوم ينزعج الدولار الأمريكي من أن يساويه الصراف بـ ١٢٠٠ دينار عراقي. لا أظن أن سمعة العراقي مرتبطة بقيمة الدينار!

قيمة كل مواطن بقيمة دولته؛ قوته، سمعته، واحترام الآخرين له خارج بلاده! وإذ يقارن المرء بقرينه، تبدو الدول بعلاقاتها الدولية، بأصدقائها، ودولة العراقيين بلا أصدقاء. فهل يمكن أن نقول أننا نعيش في بلاد ميتة، إذ ليس للموتى صديق .. إلا التراب وبعض الكائنات الخالدة التي لا تراها أعيينا حتى يعبئ كأسها تراب المقابر!

وبعض الذين يشاركون في إدارة الدولة (وصناعة سمعتها) يتصرفون ببلاهة مخجلة لا نظير لها، دون أن يعيروا أي اهتمام لما حولنا ومَن حولنا من دول العالم وشعوبه وكأن العراق هو العالم كله. يخرج بعضهم بشكل شبه يومي على شاشة التلفزيون بملابس نشاز أحجامها وتصميمها وألوانها، دون أن يعرف أن سمعة البلدان قد ترسمها صورة أبنائها على القنوات الفضائية! فلنشكر الله أن الآخرين يمتلكون من الذوق ما يمنعهم من أن يرسموا صورا كاريكاتيرية لبعض (سياسيي) العراق وبعض (إعلامييه) بأشكالهم وهيئاتهم المثيرة للضحك والشفقة في آن معاً. ولعلهم حين يرون بشاعتهم على صفحات جرائد الآخرين سيحرضون الشارع العراقي على الخروج في تظاهرات تندد بصور الكاريكاتير التي تستهدف (الرموز الوطنية)، أليس هذا ديدنهم؟!

فلنعترف بأن العراق اليوم يفرض حصارا على نفسه، إنه بلا أصدقاء، وإنه بحاجة إلى أصدقاء، أنه يعاني مرض التوحد الذي يصيب الأطفال الصغار فيعزلهم عن محيطهم، ويمنعهم من اللعب والتواصل مع أقرانهم. ولنعترف بأن السنوات الماضية التي تلت عام ٢٠٠٣ كانت سنوات هذا الطفل المسمى العراق (الجديد)، الطفل العراق العاجز عن التواصل مع نفسه، ومع محيطه الإقليمي والدولي، ولنحاول دفعه لكي يهتم بمظهره، ويحسن من أدائه ويعبر عن نفسه بطلاقة دون عقد الخوف والارتياب والنقص، والمؤامرة.

مهمة من يتصدون لحمل اسم العراق أن يعملوا على اكتساب أصدقاء للعراق كدولة (ذات سيادة). ولكنهم قرابة ٩ سنوات انشغلوا بأشياء أساءت لسمعة بلادهم وعزلتهم عن أقرب المقربين لهم. حتى بات على كل عراقي أن يعمل جاهدا ليرمم التشوه الذي أحدثه أولئك (السياسيون) في ملامح صورة العراق. لقد قتلت سياساتهم علاقاتنا الدولية فبتنا في جزيرة نائية عن العالم كله.

وسواء أكنت أيها العراقي مسافراً يحمل جواز سفرك شعار العراق، أو كنت رياضيا تحمل على صدرك علم العراق، .. سواء أكنت صحفيا يقرأ مقالك الآخرون، أو كنت مدوناً سطورك على صفحات الفيس بوك.. فلتكن سمعة العراق دائما أمام عينيك .. فبلدك دون أصدقاء، بلدك يعاني التوحّد.

شـطّ العـرب.. الرمزيـة والواقـع المـتردّي!

تتفاقم المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والبيئية في منطقة شط العرب منذ حرب الخليج الأولى مرورا بالحروب المتتالية وانتهاء بالسيطرة الكاملة على الإيرادات المائية نتيجة بناء السدود والمنشآت في الأجزاء العليا لشبكة الأنهار المغذية للشط، ويتداول الإعلام الوطني أخبارا وتصريحات محزنة عن واقع المنطقة التي كانت حتى وقت قريب رمزا للخصوبة والمياه الوفيرة والجمال والثروة والانفتاح على العالم الفسيح باعتبارها رئة العراق وإطلالته على البحر وتفاعله مع الحضارات البشرية المتنوعة منذ فجر بزوغها.

د. حسن الجنابي

١ - ٢

نهر يجري شمالاً وجنوباً:

إن شط العرب هو مجرى مائيّ من نوع فريد لأنه وعلى العكس من كل الأنهار الأخرى يجري باتجاهين متعارضين شمالا وجنوبا بنفس اليوم وهو نهر بلا منابع!. وان كان لابد من منابع لأي نهر، فمنابع شط العرب هي منابع الأنهار الكبرى التي يتشكل منها هذا المجرى العظيم وهي نهرا الفرات ودجلة اللذان ينبعان في تركيا ونهرا الكرخة والكارون وتقع منابعهما في إيران بالإضافة إلى روافد دائمية أو موسمية أخرى تصب بالنتيجة بواحد من تلك الأنهار.

يصب نهر الكارون مباشرة بشط العرب إلى الجنوب من مدينة البصرة بحوالي ٢٥ كم، أما أنهار الفرات ودجلة والكرخة فهي تصب في نهاية المطاف في شط العرب شمال البصرة ولكن عن طريق الأهوار العراقية، حيث يتشكل منها تكوين مائي أكثر فرادة، كنظام لمسطحات مائية ومقاصب ومستوطنات بشرية وسلسلة هائلة من الأحياء والنباتات المائية، تشكل بدورها حلقات مترابطة لدورة كاملة للحياة، بالإضافة إلى كونها حاضنة رئيسية للتنوع الأحيائي في بيئة مائية مجاورة لأشد مناطق العالم جفافا وهما الربع الخالي والصحراء الكبرى.

يمثل شط العرب الجزء الجنوبي لذلك النظام المائي الهائل الذي يتشكل من الأنهار الأربعة المذكورة من المنابع حتى المصب. فالمعروف بأن للأنهار منابع متعددة ولكنها تتدفق دائما نحو مصب واحد، وشط العرب هو ذلك المصب والمنفذ الذي يجمع وينظم حركة تلك المياه، في شحتها أو فيضانها، ويحدد علاقتها التفاعلية مع مياه البحر المالحة في حالتي المد والجزر، فيجري شمالا أثناء المد وجنوبا أثناء الجزر.

رمزية الشطّ ووظائفه الملموسة:

إذا ما وضعنا جانبا قضية السيادة الوطنية على شط العرب والحدود الدولية، وهي قضية حساسة، وتدير ملفها جهات حكومية أخرى بحكم اختصاصها، فبالإضافة إلى الرمزية العالية لشط العرب في وجدان البصريين والعراقيين، تأريخا وتجارة وإبداعا وشعرا وانفتاحا وما شاكل ذلك، يمكن القول بأن لشط العرب – مائيا– مهمتين رئيسيتين: أولاهما كونه ممرا مائيا مهما لأغراض الملاحة والنقل النهري والبحري وما يرتبط بذلك من السياحة والترفيه، وثانيهما هو أن شط العرب يمثل المصدر الرئيسي لمياه الشرب وللفلاحة وصيد الأسماك وغير ذلك مما يتطلب مياهاً عذبة اعتاد السكان عليها منذ بدء الوجود البشري على تلك البقعة من الأرض.

بالنسبة للوظيفة الأولى، فإنها وإن تراجعت كثيرا وتدهورت بسبب الحروب وما خلفته من غوارق وتدمير وإهمال، إلا انه يمكن استعادتها لأن ظاهرة المد البحري تضمن وجود المياه في مجرى الشط باستمرار، وكذلك يمكن القيام بأعمال تنظيف مجرى شط العرب من الغوارق وتعميق مقطعه وتحسين وصيانة ضفافه، بل تعميق وتأهيل القنوات المرتبطة به على الجانبين وخاصة قنوات مدينة البصرة الستة على يمين الشط وهي السراجي والخورة والعشار والخندق والروباط والجبيلة، التي تكوّن مع الشط شبكة مائية متصلة تصلح للاستخدام في النقل والترفيه وغيرذلك مما يجلب للمدينة رونقها وأناقتها وحيويتها المفقودة نتيجة الحروب والإهمال، ويحقق فيها تنمية اقتصادية واجتماعية هي في أمسّ الحاجة إليها، وستحاكي البصرة عند ذاك على الأقل مدينة أمستردام المشهورة بقنواتها الكثيرة بعد أن فقدت لقبها الرومانسي "فينسيا الشرق".

أما بالنسبة للوظيفة الثانية فإن عذوبة مياه الشط هي التي ساعدت على الاحتفاظ بخصوبة التربة وبغابات النخيل المليونية والحقول والبساتين المزدهرة على الضفتين والمساحات الخضر في الأماكن العامة والبيوت والمزارع وغيرها. ومن الواضح إن كارثة كبرى قد حلت بهذه الوظيفة وانعكست بإفقار شامل لفئات سكانية كبيرة نتيجة تحطيم البيئة النهرية الطبيعية لشط العرب ومحيطه الجغرافي، وخاصة تدمير خصوبة التربة وغابات النخيل وتراجع الثروة السمكية وصعود المد المالح في الشط وانعدام مياه الشرب في المدن والقرى، مما أسفر عن توقف النشاط الاقتصادي بشكله المعروف تاريخيا.

لقد وصل الحد بالنظام السابق ونتيجة للتدهور الذي حلّ بالشط نتيجة الحروب والتعسف إلى الترويج لفكرة الاستغناء عن شط العرب والاستعاضة عنه بقناة "شط البصرة" في محاولة جاهلة لمنع استفادة إيران من شط العرب بعد التنازل المهين عن السيادة على نصف الشط لصالحها بدءاً من الضفة اليسرى للشط التي كانت تمثل الحدود السياسية بين البلدين لعدة قرون وحتى المجرى العميق في منتصف النهر وذلك في عام ١٩٧٥.

أما قناة "شط البصرة" فهي قناة كبيرة منجزة تقع إلى الغرب من المدينة وتصل بين كرمة علي والجزء السفلي من قناة "المصب العام" قبل مصبه في الخليج بمسافة قصيرة، ويمكن استخدامها للنقل المائي أو أي استخدامات مناسبة أخرى ولكنها لاتعوض عن شط العرب بأي شكل من الأشكال.

مجمّع المياه الناضبة!:

كانت مياه الأنهار الأربعة الكبيرة جميعها تصب في شط العرب وهو بدوره يفرغها في ثغر الخليج، والأخير يرجعها شمالا أثناء المد البحري العالي فتندفع خلال شط العرب وكرمة علي وهور الحمّار لتسقي الحقول والمزارع والبساتين، وتتيح الصيد الوفير وتسهّل حركة الزوارق والمراكب، ثم تجري جنوبا أثناء الجزر البحري لتتسرب إلى شمال الخليج وتختلط مع مياه البحر فتكوّن مساحة بحرية ذات طبيعة خاصة هي مأوىً لأنواع إحيائية متميزة.

أخذت تلك المياه بالانحسار التدريجي منذ السبعينات بسبب بناء السدود وتحويل مجاري الأنهار والروافد في دول الجوار ومع انحسارها تقدمت مياه الخليج المالحة لتندفع في شط العرب شمالا ولتحلّ محل المياه العذبة التي كانت تملأ مقطع الشط والأهوار اللصيقة به. وقد كان سد الكرخة الذي أنجز عام ٢٠٠١ وسلسلة السدود على نهر الكارون وروافده التي اكتملت في عام ٢٠٠٦ بمثابة الضربة القاصمة والأخيرة في عذوبة شط العرب بعد انحسار مياه الرافدين الفرات ودجلة ، مما أدى إلى تردّي بيئته النهرية بشكل مريع.

لقد فقدت بيئة شط العرب أثر ذلك خصائصها الساندة للحياة وأهمها خصوبة التربة وكذلك القدرة على تعويض وتجديد المخزون السمكي والأحياء المائية الأخرى. فالتربة، وعلى عكس الانطباع السائد، هي من الموارد غير المتجددة وإذا فقدت خصوبتها نتيجة للتملح والإهمال فهي تفقدها للأبد.

كذلك الأمر إذا تلوثت المياه العذبة أو تردت نوعيتها أو أصبحت مالحة فإن المخزون السمكي المعتاد سوف ينضب وتنقرض الأنواع المحلية المعتادة من الأحياء المائية، ولذلك يضطر الصيادون البصريون للبحث عن الصيد في أماكن أبعد لم يألفوا الاصطياد بها، وهذا يفسّر مأساتهم وحوادث اعتقالهم المتكررة من قِبَل دول الجوار ومصادرة مراكبهم وتعريضهم للإهانات والتعسف كما عرض في الإعلام العراقي الرسمي في أكثر من مناسبة. كما تناولت الأخبار حوادث العثور على أحياء مائية غريبة كأسماك القرش في شط العرب ويعزو مركز علوم البحار العراقي ذلك إلى التغيير في بيئة شط العرب وندرة المياه العذبة التي لاتعيش بها تلك الأسماك.

إن حجم التدهور في مساحات كثيرة من منطقة شط العرب يؤهلها لكي تصنف على أنها منكوبة وبحاجة إلى تدخل استثنائي وفق برامج إغاثية، بحيث يمكن منح تعويضات مناسبة للسكان وخاصة المزارعين والصيادين لتمكينهم من ترميم محيطهم وتطوير وسائل معيشتهم وانتشالهم من الإفقار الذي حل بهم ومساعدتهم على استعادة قيمة ممتلكاتهم، فقد تعرضوا إلى ويلات الحروب التي طحنت أبناءهم وحطمت مقومات حياتهم الاقتصادية واليوم يعانون تدهور محيطهم البيئي وتراجع قدرتهم في الحصول على الغذاء والخدمات الضرورية بما فيها مياه الشرب.

مع ذلك فالمنطقة بحاجة إلى دراسة علمية وتفصيلية لتقييم مستويات التردي البيئي والزراعي للتعرف على مديات تراجع الأمن الغذائي والاكتفاء الذاتي من الزراعة والصيد، واعتماد تلك الدراسة كأساس لإعادة تأهيل المنطقة وفق خطة متكاملة تهدف إلى مساعدة التجمعات البشرية في القرى والمدن على البقاء في أماكنهم وتجنب النزوح قبل فوات الأوان.

يتبع الجزء الثاني

كاريكاتير

■ عادل صبري

الـثـقـافـة المـضـادّة فـي المـجـتـمـع المـدني

د. لقاء موسى فنجان

يشهد العراق الآن انبثاقاً للمنظمات النسائية غير الحكومية. وبتشجيع من العقد الذي خصصته الأمم المتحدة للمرأة انطلقت موجة من الأنشطة الجديدة انتظمت حول حاجات النساء. لكن هذه الأنشطة ارتبطت مرة أخرى بالمؤسسات الحكومية، لا سيما وزارة الشؤون الاجتماعية، ووزارة المرأة التي تشكلت بعد أحداث ٢٠٠٣ وتتبنى دائماً آراء تقليدية ومحافظة إلى أبعد الحدود في ما يتصل بحاجات ومتطلبات المرأة. أما الجماعات النسائية التي تتحدى التنظيم الذكوري الأبوي للمجتمع فتتعرض للمضايقة والتشكيك في مصداقيتها في بعض الأحيان.

وعند محاولة فهم طبيعة التهديد الذي يمثله قيام النساء بتنظيم أنفسهن داخل جماعات، وردّة الفعل التي يستثيرها في المجتمع، يجب أن نتساءل عما إذا كان من الضروري تقصي ظاهرة أخرى أكثر تعقيداً تكمن في صميم طبيعة المجتمع المدني والمجتمع المحلي المعتمد على الذات. ففي العراق لا يعد المجتمع المدني مبدأ ناظماً أساسياً لإدارة الجماعات أو التحكم بها. فالعائلة والجماعات القرابية وأخيراً القبيلة هي الوحدات التنظيمية الأساسية، في حين يعد سواها من التنظيمات التي تخترق المجتمع أفقياً هدامة وخطيرة في أغلب الأحوال.

إن صوت الفرد لا أهمية له في القبيلة أو الجماعة القرابية، لكنه يتمتع بأهمية حاسمة في المجتمع المدني القائم على الجماعات ذات المصالح المشتركة والجماعات المنظمة، بغض النظر عما إذا كانت رجالية أو نسائية إذ تعد على القدر نفسه من التهديد والخطورة بالنسبة لدول العالم العربي التي تسيطر على معظمها أنظمة حكم متخلفة، حيث يعد رئيس الدولة الزعيم الأعلى للقبيلة، أو رب الأسرة الوطنية الكبرى. لهذا تجري مراقبة الجماعات المنظمة، والتحكم بها بكل عناية ودقة. ولا يسمح للرجال إلا بإقامة النوادي الرياضية، وبعض الجمعيات الثقافية في حين تقيد أنشطة النساء عموماً في إطار المنظمات الخيرية لمساعدة المعوقين والعاجزين، أو المرضى العقليين. وبالتالي فان المجتمع لا يأبه للإجماع المدني، ولا يبالي بصوت الفرد، ويعد الجمعيات التي تخترق الجماعات القرابية والقبلية مصدراً للتهديد والخطر. وفي مثل هذا المجتمع لا بد من أن تعد النساء اللاتي ينتظمن في جماعات بمثابة تهديد دائم للمؤسسات القائمة.

إن العراق منطقة متغايرة الخواص والعناصر إلى حد بعيد. وحياة النساء اللاتي يعشن فيه تتباين تبايناً جذرياً في ما يتعلق بالوصول إلى الموارد الاقتصادية والسياسية، وبالكيفية التي ينظرن فيها إلى أنفسهن وينظر إليهن الآخرون. في مثل هذا التنوع الحاشد، هناك موضوع وحيد يبدو انه يتمتع بالثبات والاستمرارية والاطراد. إذ يوقع المرأة– حين الوصول إلى درجة تفوق الرجل– في شراك القيود والالتزامات التي تفرضها صلات القربى. وبرغم إن الرجل هو الرمز الحي للروابط القرابية الأبوية فان مسؤولية التعبير عن هذه الروابط والعواطف تقع على المرأة. وبالنسبة لمعظم نساء العراق في السنوات القليلة الماضية أصبح موضوع المجتمع المدني مرة أخرى أحد العناوين الرئيسية التي تحظى بأهمية كبرى لدى الباحثين والسياسيين.

والحق أنه يجب علينا الانتباه إلى حالات التعاون المتبادل بين الدولة والمجتمع المدني. كما يجب التأكيد على أن (مزيداً) من المجتمع المدني لا يؤدي بشكل آلي إلى مزيد من الديمقراطية والتنمية. إن تشكيل بعض الجماعات النسائية، رسمية كانت أو غير رسمية، سوف يوفر فرص الاستخدام للمتعلمات والمحظوظات من النساء. وفي السياقات الأخرى سوف يخلق المجتمع المدني على نحو يتزايد باضطراد الفرص للنساء الأكثر فقراً للتعبير عن أنفسهن وإقامة التنظيمات التي ترعى مصالحهن المتبادلة. لكن هذا التوكيد الجديد على المجتمع المدني يتضمن مخاطر كبيرة، تتمثل في استمرار حرمان نساء العراق من حقوقهن، إذ طالما ظلت المرأة تعتبر استثناء في المعايير الذكورية، ولسوف تبقى تعرف على أنها (مختلفة). ولسوف يستمر اصطفاء النساء، كهدف للجهود التنموية المحددة المتجهة نحو حاجاتهن الخاصة. ومن وجهة النظر هذه فإن بذل مزيد من الجهود لتنظيم النساء يزيد من اعتمادهن على مراكز القوى، وطنية كانت أو دولية، مدنية أو حكومية. مع ذلك، فإن فهم القضايا والقيود التي تواجه النساء في العالم عند تشكيل الجماعات الرسمية أو غير الرسمية، ليس سوى خطوة صغيرة باتجاه مساعدتهن على التحكم بحياتهن وتسيير شؤونهن ذاتياً.